الأجـل

أحس الشيخ عبد الفتاح بدنو أجله: آلام مبرحة في منطقة «البروستات»، حرارة عالية، انهيار في القوة.. صَابَرَ حتى الفجر، عنئذٍ طلب من زوجته الثالثة (فقد توفي قبلها اثنتان) أن تتصل تلفونيّاً مع ابنه الوحيد – محمود – الذي يسكن في مزرعتهم على بعد خمسة عشر كيلو متراً من المدينة التي تقيم فيها العائلة، وتخبره بحالته، ثم تخبر من تزوج من بناته العشر (أريد أن أشاهد ابني وبناتي قبل أن أفارق الحياة)..

قبل شهر واحد فقط كانت الأسرة بكامل أفرادها تحتفل بالذكرى الخامسة والتسعين لميلاد عميدهم الشيخ عبد الفتاح، وكان الرجل متماسكاً حاد الذاكرة، على الرغم من كبر سنه، سليم العقل، انطلق صوت ابنه محمود»:

– عقبال المئة والخمسين سنة يا أبتي..

وتبعته أصوات البنات والزوجة مهنئة بهذه الذكرى العزيزة...

قال الشيخ:

أشكركم جميعاً، ولكن ماذا ينتظر الذي عاش خمسة

وتسعين عاماً سوى رحمة ربه، ونسأل اللّه أن يصدق فِيَّ قول الرسول الكريم [«خيرُكم من طال عُمُرُهُ وحَسُنَ عملُه» .

قال الجميع:

– بعيد عنك الشر يا أبانا.. لمن نفزغ في الملمات بعدك، وأين نجد الرأي الناضج والحكمة التي تنبع من تجربة عميقة؟

– لقد عشت ما فيه الكفاية يا أبنائي، عشت الحياة حلوها ومرها.. أدركت الأردن وليس فيها إلا بضع مدارس تعلم بالعربية والتركية.. درست في مدرسة المدينة حتى الصف السادس ثم أرسلني أبي للدراسة في دمشق، ومكثت هناك ثلاث سنوات.. قرأت، خلال هذه الحياة، الكثير، ورأيت الكثير.. وخبرت الكثير.. أدركت نهاية الأتراك في الأردن والمشرق العربي، وكنت أحد الذين استقبلوا الأمير عبد الله في القطرانة، كنت شاباً في الخامسة والعشرين تقريباً.

قال محمود:

– إذن، طرأ على الأدرن تقدم كبير خلال هذه السنوات السبعين..

– بدأت اليقظة، يا بني في مصر مع إطلالة حملة نابليون، لا تصدق الذين يقولون: لم يكن لحملة نابليون علاقة بيقظة مصر ثم العالم العربي، الحملة نبهت العقول وحركت الوجدان وجعلت النبهاء يدركون أن العلم هو وسيلة التقدم.. فبدأت مصر تدخل ميدان التعليم ثم تلتها بعد مطلع القرن العشرين بعقدين، بلاد

المشرق العربي ومنها الأردن، إنه مد حضاري انتشر في بلاد العالم الثالث كلها على تفاوت.

قال محمود:

– إذن الغرب له فضل على المشرق بهذا المد العلمي؟.

– نعم له فضل المد العلمي، ولكنه أساء بتوجيه العلم في بلادنا وبلاده، الفلسفة التي كانت توجه هذا العلم هي الفلسفة النفعية، وهذه الفلسفة قادت إلى الرأسمالية التي جعلت التفاوت فاحشاً بين الغني والفقير، وإلى الفردية التي انعدم فيها التعاون، وفي بلاد العالم الثالث أضيف إلى ذلك السلوك الاستهلاكي، كنا منتجين فأصبحنا مستهلكين، كنّا مجتمع كفاية فأصبحنا مجتمعاً غارقاً بالديون.. العلمُ ليكون نافعاً يحتاج إلى مبدأ سليم، فلو أخذنا العلم وانطلقنا به على قاعدة الاسلام لاختلفت النتائج...

قال بعض البنات:

– لهذا وجهت محموداً نحو دراسة الهندسة الزراعية، لكي يشرف على مزرعتنا، فيكون منتجاً لا مستهلكاً فحسب، وهز الشيخ رأسه علامة الموافقة وطال الحديث بين الشيخ وبناته وابنه الوحيد، فكانت ليلة سعيدة..)

بعد بضعة أيام أصيب الشيخ بمرض فارتفعت درجة حرارته، مما أدّى إلى استدعاء محمود والبنات.

وعندما وصل محمود كان أكثر بنات الشيخ يجلسن حوله واجمات وقف عند رأس أبيه، وضع يده على جبهته، أحسَّ بحرارتها إحساساً واضحاً، نَقَلَ يده إلى زنده، كان نبضه ضعيفاً، فتح الشيخ عينيه المغمضتين، رأى محموداً، أشار إليه أن أجلسني، جلس متكئاً على مساند، نظر في وجوه بناته وزوجته ثم نظر إلى محمود.

– يا بني، أوصيك بأمك الثانية خيراً، فقد خدمتني في شيخوختي، وقدمت رغبتي على رغبتها في كل شيء، ولم تخلف أولاداً ذكوراً، فكن أنت ولدها، وأوصيك بأخواتك خيراً، وَزِّعْ التركة على الورثة بالعدل تبعاً لما يقتضيه الشرع، لأن الشرع هو العدل، حافظ على قلبك نظيفاً مليئاً بالإيمان، اجعل العدل شعارك، تسامح مع الناس، واجعل الحق الضائع لك لا عليك، ان كان لابد من ضياع الحق.. لقد عشت خمسة وتسعين عاماً، فما وجدت حلاوة تعدل حلاوة الإيمان والعدل.

أحس الشيخ بإجهاد فتوقف عن الكلام، وألقى برأسه على المساند.. لحظات ثم فتح عينيه، أسرع محمود يطمئنه:

– يا أبي لا تجهد نفسك، نحن – جميعا – تربيتك، ونظل كما عهدتنا، ثم أردف:

اسمح لي يا أبي أن آخذك إلى المستشفى..

– الشافي هو الله ﴿ وإذا مَرِضتُ فَهُوَ يَشفِينِ ﴾ ولكن لا بأس

فالطب والدواء من وسائل اللّه في الشفاء.

اجتمع إلى الشيخ ثلاثة أطباء فحصوه فحصاً دقيقاً وأجرو تحاليل على عجل.. بعد ساعتين قال رئيس الأطباء لمحمود وجمهرة من أقارب الشيخ وأصدقائه:

– الأعضاء الرئيسية في جسم الشيخ سليمة، ولكنه مصاب بالتهاب حاد في «البروستات» مما يستدعي عملية جراحية سريعة، سنجريها غداً إذا وافقتم على ذلك.. بعد مشاورات قصيرة بين محمود وأقاربه وافقوا على إجراء العملية، وأبلغ محمود الشيخ بذلك، قال الشيخ:

– لست متمسكاً بالحياة بعد هذا العمر الطويل، ولكني لست كارهاً لها ولأن الحياة هبة ربانية يجب أن نحافظ عليها بما نعرف من وسائل المحافظة، ثم يبقى القدر بيد الله، في الحياة والموت، لا بأس بالعملية مادامت محاولة للحفاظ على هبة الله..

إطمأن محمود على وضع أبيه في المستشفى، وعاد إلى بيته في المزرعة بعد الثامنة ليلاً، لم ينم تلك الليلة إلا قليلاً شرد خياله في لحظة من اللحظات فألفى أباه قد مات على أثر العملية.. «شيخ كبير لم يتحمل المخدر والجراحة» وتخيل الجنازة المهيبة والمعزين يتوافدون على بيت أبيه الكبير في وسط المدينة، ثم بدت له صورة الورثة يطالبون بتقسيم التركة، خلاف سينشب على تقسيم بعض الممتلكات الجامدة... البيت الكبير، المزرعة الواسعة.. لم يفق

محمود من خياله إلا على أثر حركة من ساق زوجته وقد طوحت بها فوق الغطاء.. استعاذ باللّه من الشيطان، أيقظ زوجته وطلب منها أن تعد له فنجان قهوة، لم تكن القهوة بغيته، لكنه أراد أن يخرج من وحدته ليخرج من هذه الخيالات الملعونة..

في الصباح وصل محمود إلى المستشفى مبكراً، بعد ساعة احتشد عدد كبير من أقارب الشيخ وأصدقائه ينتظرون متوجسين نتيجة العملية.. بعد ساعتين ونصف ساعة خرج الطبيب الجراح.. توجه نحو محمود فالتف حوله عدد كبير من الرجال:

– العملية بمشيئة الله نجحت، سيعود الشيخ إلى وعيه بعد نصف ساعة، ولكن لا يجوز أن يزوره أحد ولو بكلمة لمدة يومين، وسأعطي تعليماتي للممرضات، يحتاج الشيخ إلى بعض الوقت في غرفة الإنعاش.

أمضى أقارب الشيخ ساعة في الحديث حول ما قاله الطبيب الجراح، وحول العلمية، والزيارة المرتقبة له بعد يومين ثم انفضوا إلى شأنهم، ولم يبق إلا محمود.

وفي الساعة الثانية عشرة ليلاً دخلت الممرضة نظرت إلى محمود الذي إلى جانب سرير أبيه، بعد أن أُخرج من غرفة الإنعاش... كان الإرهاق بادياً على ملامح الشاب، خاطبته الممرضة:

– أنت مرهق يا محمود!

– لم أنم البارحة ولا هذا اليوم.

– وهل أكلت طعاماً.

– لم أذق الطعام منذ صباح أمس، عندما استدعيت بسبب مرض أبي.

– أنصحك أن تغادر الآن، فالشيخ يتحسن ونحن نعتني به العناية اللازمة، لا تذهب إلى المزرعة، فمن الخطورة أن تقود السيارة وأنت في هذه الحال، كل طعاماً ثم نم في بيت أبيك هنا في المدينة.

شكرها محمود بألفاظ صريحة ثم ودعها بإشارة من يده، فودعته بإيمائة من رأسها وعلى فمها ابتسامة رقيقة.

فتح باب السيارة، جلس وراء المقود، أدار المفتاح في مكانه، وكلمات الممرضة ترن في أذنيه ولكن فجأة غمره شعور بأن ما عاناه هذين اليومين من تعب وإرهاق وترقب.. لن يسمحه إلا بسمة من شفتي زوجته الحانية وكلمات رقيقة تهدئ خاطره بها، وإلا قبلات شفيفة يطبعها على جبين صغيره الذي يكون نائماً في مثل هذا الوقت، وامتد شعاع من النور يصل بين عينيه ووجه زوجته في داره بالمزرعة.. وانطلقت السيارة مخلفة وراءها سحابة من الدخان..

استيقظت زوجة محمود بعد إغفاءة قصيرة، الساعة الواحدة أحست بقلق (لماذا لم يعد محمود، ولم يتصل بي؟) اتصلت مع المستشفى، أجابتها الممرضة.

– محمود غادر الساعة الثانية عشرة، ونصحت له أن يبيت في دار أبيه في المدينة، لأنه مرهق..

فوراً... اتصلت مع البيت الكبير في المدينة، أجابت زوجة الشيخ.

– هالو..

– محمود عندكم.

– محمود عند أبيه في المستشفى – قالت الزوجة – الممرضة أخبرتني أنه غادر متوجهاً إليكم.

– أبداً لم يأتِ.

ازداد قلقها، اتصلت مع سعيد ابن عم محمود، عبرت له عن قلقها! قال لها: إنه سيتولى المهمة... أمضى ساعتين في الاتصال مع أقارب محمود وأصدقائه الذين يمكن أن يبيت عندهم.. كل يؤكد له أنه لم يَرَهُ بعد أن غادر المستشفى وظل محمود عند أبيه..

في الساعة الخامسة كان قد اجتمع مع سعيد أربعة من الأقارب، تشاوروا في الأمر، قرروا أن ينطلقوا باتجاه المزرعة يمسحون الطريق فلعل السيارة قد تعطلت أو لعل..! مع بزوغ الشمس كانت السيارة تقطع طريقاً في وسط الجبل وتطل على واد سحيق.. نظر السائق فرأى سيارة زرقاء مرتطمة بصخور الوادي.. أخبر المجموعة، لاحظ سعيد أن لونها كلون سيارة محمود، أوقف السائق السيارة على أقصى يمين الطريق، وانحدر الجميع نحو الوادي.. كان سعيد أسبقهم،.. أطل من شباك

السيارة المحطم، ثم رفع رأسه على عجل وقد مال بجذعه نحو جسم السيارة متكئاً على كَفِّ يده الذي بجسم السيارة، وصاح بصوت تردد في جنبات الوادي:

«إنا للّه وإنا إليه راجعون»

obeikandl.com